

النقد السياقي: أسئلته المنهجية وأسس الفلسفية
Contextualcriticism:-Its Methodological Questions
and Philosophical Foundations

د. محمد عروس

جامعة العربي التبسي، تبسة، الجزائر

arousmohammed@gmail.com

تاريخ النشر: 2019/02/10

تاريخ القبول: 2018/07/12

تاريخ الإرسال: 2018/04/13

مجلة إشكالات

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن الأسس الفلسفية للنقد السياقي، الذي توزعته ثلاثة اتجاهات كبرى تمثلت في المنهج التاريخي المستند على حياة المؤلف والسياق التاريخي للنص، والمنهج الاجتماعي المعتمد على البيئة الاجتماعية، والمنهج النفسي القائم على الحياة النفسية، ودورها في إنتاج النص وتلقيه، ذلك أن كل توجه نقدي لا يمكن فهمه وتطبيقه بمنهجية إلا من خلال التعرف على الأسس التي يستند إليها وتؤطر مفاهيمه، وتوجه أحكامه التي يصدرها. ومهما تنوعت التوجهات النقدية يبقى للنقد السياقي حضور منهجي، وامتداد معرفي لا يمكن تجاوزه، ولذلك خصصناه بالدراسة في هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: النقد السياقي، المنهج التاريخي، المنهج الاجتماعي، المنهج النفسي.

Abstract

This study seeks to uncover the philosophical foundations of the contextual criticism, which was divided into three major trends, namely the historical approach based on the life of the author and the historical context of the text, the social approach based on the social environment, and the psychological approach based on psychological life and its role in producing and receiving the text. This is based on the premise that each critical approach cannot be understood and applied systematically except by identifying the principles on which it is based, by framing its concepts and directing its rulings.

Whatever the diversity of the trends, the contextual criticism has a systematic presence and a cognitive extension that cannot be overcome.

Keywords: Contextual criticism, historical approach, social approach, psychological approach.



مقدمة

النقد قرين الإبداع، وكلاهما وليد التحولات الحضارية التي تشهدها الأمم في حركيتها المستمرة عبر التاريخ. ذلك أنه ينشأ عن الإبدالات الحضارية إبدالات نصية؛ إبداعية ونقدية مرافقة لها. فكلما وجد واقع جديد إلا ونشأ عنه إبداع جديد يحمل خصائص فنية، تستجيب وتعبر عن أفكار وطموحات العصر الذي انبثقت عنه. ولا محالة فإن النقد سيعمل على تغيير آلياته، ويطور من مفاهيمه وإجراءاته بما يتناسب والراهن الحضاري والإبداعي الذي سيعمل على كشف منجزاته، والبحث في أبعاده وجمالياته، وتقديمه للمتلقي والحكم على منجزاته.

وبالنظر إلى ما لحق الحضارة الإنسانية في مستهل القرن التاسع عشر من ثورة علمية، وتفاعلات معرفية، فإن النقد القائم على الذوق والانطباع، والمتسم بالسطحية، والمعتمد على التأثر، لم يعد مناسباً لروح العصر العلمية، وهو ما استدعى من النقاد استثمار تلك الروح العلمية في إيجاد مناهج جديدة، تحاول الاقتراب من العلمية، والابتعاد عن الانطباعية، والتقديرية، والتأثرية. فظهر نتيجة لذلك ما عُرف بـ"مناهج النقد السياقي"، كردة فعل مباشرة على النقد الانطباعي والنقد التقريبي، والنقد التأثري.

اتخذت "مناهج النقد السياقي" من العناصر المحيطة بالعمل الإبداعي والمؤثرة في إنتاجه وتلقيه مرتكزا لكل قراءة نقدية للعمل الإبداعي. وتمثلت تلك المناهج النقدية السياقية في ثلاثة توجهات منهجية: المنهج التاريخي، والمنهج الاجتماعي والمنهج النفسي. وضمن كل توجه نقدي تختلف الرؤى والتصورات، والمفاهيم والمصطلحات، التي تحاول ضبط رؤيتها في الحكم على الأعمال الإبداعية. وعليه فكل دارس للأدب عليه التعرف على طبيعة هذه المناهج، ورؤيتها النقدية، حتى يتسنى له متابعة الحركة النقدية من جهة،

وامتلاك آليات قرائية تسمح له بتذوق الأعمال الأدبية والحكم عليها من جهة ثانية، ولا يتسنى ذلك إلا بالبحث في الأسس الفلسفية التي استندت إليها تلك المناهج وهي تضع قيمها النقدية. فما النقد السياقي؟ وما الأسس التي يستند عليها في إرساء منظومته المعرفية التي تشكل رؤيته النقدية للأدب؟

تنشأ المناهج النقدية، وتترعرع في البيئة الثقافية والأدبية التي تتوفر فيها جملة معطيات، يؤدي التفاعل بينها إلى تغيير النظرة أو تعميقها في الحكم على الأعمال الأدبية، حسب توجهات العصر الثقافية، والأيدولوجية، والاجتماعية، والاقتصادية وما تركز عليه من قيم حضارية، ومرجعيات فلسفية، ولذلك فكل توجه نقدي لا يخلو من خلفية فلسفية تسند رؤيته، وتحدد منطلقاته، وترسم غاياته وأهدافه، إذ لا شيء ينشأ من فراغ، أو يسعى إلى غير غاية.

لقد مثلت ثنائية الإبداع والنقد عبر صيرورتها التاريخية مجالا خصبا لصراع مستمر، فالنقد يعمل جاهدا على وضع المفاهيم، وإصدار الأحكام التي تضبط الظاهرة الإبداعية، والإبداع يسعى جاهدا إلى تجاوز تلك الأحكام والضوابط. وذلك ما يؤدي إلى تجدد النقد، وحركية الإبداع، إذ النقد في بعض تعريفاته «طريقة في الحياة، وطريقة في التفكير، وموقف من الحضارة، وهو دليل على حيوية الفكر ونهج يحدد به الفكر نفسه»¹، وعليه فمثلما لا يمكن حصر الإبداع في أقباص مغلقة لا يبرحها، أو يتجاوز حدودها، أو يكسر قيودها، لا يمكن ضبط النقد في قوالب جاهزة، لا يتخطاها، أو يتعدى مقولاتها.

تخضع حيوية الإبداع وحركية النقد إلى قيم العصر الفنية، ورؤاه الحضارية وفلسفته الكونية، وكلما حدثت تحولات جوهرية في دورة الحضارة الإنسانية، كان هناك تغير في أنماط الإبداع، وأهدافه وغاياته، وبالمقابل كانت هناك رؤى جديدة في الحكم على الأعمال الإبداعية، فتراجع رؤى، ومناهج وآليات نقدية، وتتخلق رؤى ومناهج وآليات أخرى.

وبالنظر إلى الفترة الزمنية التي انتقلت فيها الحضارة الغربية من العصور الوسطى إلى العصر الحديث الذي أطلق عليه عصر التنوير؛ وهو العصر الذي حدثت فيه تغيرات جوهرية، مسّت النواحي الثقافية، والحضارية، والنظرة للإنسان والكون، والحياة، وما تبع ذلك من تعبير النظرة لطبيعة الأدب، ووظيفته، ومفهوم النقد وغاياته، وأبعاده؛ فقد انتقل الأدب من التوجه الكلاسيكي إلى التوجهات الرومانسية، وانتقلت الرؤية النقدية من النظرة التي أرسى دعائمها أفلاطون، وأرسطو، وشيشرون وغيرهم إلى نظرة جديدة قوامها الاستفادة من كشوفات العصر العلمية، ورؤاه وتوجهاته الحضارية، ومركزاته الفلسفية والمعرفية، وبذلك كان ميلاد المناهج السياقية في النقد الأدبي، كنتاج مباشر وطبيعي لتلك التحولات الحضارية في البيئة الأوروبية خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

إن كل محاولة فهم للمناهج النقدية وآليات اشتغالها «يجب أن تكون قائمة على وعي مسبق بالخلفيات الفلسفية والأيديولوجية، وبالمناخ الثقافي، والتاريخي، والترتبة التي نشأت فيها»²، وعليه سنعمل بداية على التعرف على المدلول الاصطلاحي للنقد السياقي، ومفهوم النقد من وجهة نظر سياقية، وعلى الأسئلة التي يطرحها النقد السياقي على الظاهرة الإبداعية لنصل إلى الخلفية الفلسفية التي يتركز عليها منظور النقد السياقي.

أولاً: التحديد المفهومي لمصطلح النقد السياقي

يحدد العديد من الدارسين النقد السياقي بأنه:

- تلك المناهج التي تعنى ببحث العوامل الخارجية التي تحيط بالأدب وتؤثر فيه، محاولة تفسيره على ضوء السياق الاجتماعي له، وإن كانت هذه المناهج تتحول في أغلب الحالات إلى تفسيرات علمية تحاول ردّ الأدب إلى أصوله، ويحاول أصحاب هذه المناهج عزل سلسلة محددة من الأفعال الإنسانية، ثم ينسب لهذه الأفعال الدور الأساسي والحاسم في تشكيل العمل الأدبي، وهكذا نجد فئة من هؤلاء يعدون الأدب نتاج مبدع فرد في المقام الأول، ويختصون من ذلك إلى أن الأدب ينبغي أن يدرس على ضوء حياة المؤلف ونفسيته، ونجد فئة ثانية

تبحث عن العوامل الإنسانية المحددة للخلق الأدبي في الحياة المؤسسية للإنسان، وتعنى بالظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وقد نجد فئة ثالثة تصل إلى تفسير الأدب على ضوء تاريخ الأفكار³.

● المناهج السياقية هي المناهج التي تدرس النصوص الأدبية في ظروف نشأتها والسياقات الخارجية لها، والتأثيرات التي يتوقع للنص أن يؤثر بها فيما يحيط بها⁴.

● المناهج الخارجية أو السياقية هي المناهج التي تعين النص من خلال إطاره التاريخي أو الاجتماعي، أو النفسي، وتظهر السياق العام لمؤلفه، أو مرجعيته النفسية، وهي دعوة ضمنية إلى الإلمام بالمرجعيات التاريخية والسياقات المحيطة بالمبدع، بغية دخول النص⁵.

● مناهج النقد السياقي: هي تلك الممارسة النقدية التي تقارب النص الإبداعي معتمدة في ذلك على المؤثرات الخارجية (سواء أكانت تاريخية، أو نفسية، أو ميثودينية، أو اجتماعية) والتي أحاطت بميلاد النص الشعري⁶، واحتضنت تكوينه، فكان لها التأثير المباشر أو غير المباشر⁷.

بناء على ذلك، فالنقد السياقي إضاءة للنص الإبداعي من الخارج، وذلك باستثمار كل ما يحيط بالنص من سياقات تاريخية، واجتماعية، ونفسية، لما للنص من شبكة علاقات بينه وبين تلك السياقات، لأن النص مثلما يتولد من ذات مبدعه فإنه يخضع للمؤثرات الثقافية، والحضارية التي توجه رؤية المبدع، وبالتالي تكون تلك الموجهات الخارجية سبيلا لفهم النص الإبداعي والكشف عن أسراره، الأمر الذي يجعل الآليات المنهجية لمقاربة النص تختلف من منهج سياقي لمنهج آخر، غير أن الغاية من الدراسة ليست البحث في الآليات وإنما الكشف عن الأسس والخلفيات التي يستند إليها النقد السياقي⁸.

ثانيا: النقد من وجهة نظر سياقية

يعرف النقد وتحدد غايته من منظور النقد السياقي بأنه: «استعمال منظم للتقنيات غير الأدبية، ولضروب المعرفة غير الأدبية أيضا، في سبيل الحصول على بصيرة نافذة في الأدب»⁹. والكلمة الجوهرية في هذا التعريف هي كلمة "منظم" لأنها تخرج النقد من طابعه الانطباعي الذوقي الفردي إلى طابع علمي، يستند إلى فلسفة ورؤية، فبالتنظيم يستطيع الناقد تحويل المعطيات التي بحوزته إلى إطار منهجي يمكن أن يوصله إلى نتيجة واضحة بآليات محددة، وتمثل التقنيات غير الأدبية في عملية التداعي في التحليل النفسي، أو التفسيرات السيمانتية؛ أي السمات الدالة لغويا ونفسيا مثلا، وأما ضروب المعرفة غير الأدبية فتمتد من النماذج الشعائرية عند البدائيين إلى طبيعة المجتمعات المختلفة من رأسمالية، واشتراكية، ودينية، وإثنية وغيرها¹⁰، وكل ذلك يفضي إلى دراسة علمية وشاملة للنص أشبه ما تكون بتحليل الأشياء تحت المجهر.

تظهر ظلال الحياة العلمية والتجريبية واضحة في هذا التعريف، إذ العمل المنقود أشبه ما يكون بعينة مخبرية تحت مجهر، تتسع دائرة عدسته إلى ما هو خارج العمل الأدبي، والغاية من استحضار السياقات المصاحبة للعمل الأدبي هي الحصول على بصيرة نافذة في الأدب؛ أي إصدار الأحكام عن وعي منهجي، وبصيرة معرفية تستعين بكل ما من شأنه ضبط الأحكام وتقريبها من العلمية؛ من سياقات تاريخية وحياة نفسية، وظروف اجتماعية.

ثالثا: أسئلة النقد من منظور سياقي

إن الأسئلة التي يطرحها النقد السياقي مستمدة أساسا من الخلفية التي تسنده ولذلك لا نراه يركز على النص - وإن لم يهمله - بقدر تركيزه على السياقات المحيطة بالنص. إذ النص من منظور النقد السياقي «تنظيم ثقافي اجتماعي، ينتمي إلى سياق تاريخي يؤثر فيه، ويتأثر به، وهذا يقتضي تجاوز الشكل الأدبي وعيا للمضمون الاجتماعي المنتج لأدبية الأدب»¹¹، ومن تلك الأسئلة:

- ما هي أهمية العمل الأدبي من حيث علاقته بحياة الفنان؛ النفسية، والأسرية والاجتماعية؟
- وما علاقته بطبقته الاجتماعية؟
- وما مدى صحة نسبة العمل إلى صاحبه؟
- وما تأثيره في ذات مبدعه وفي جمهور المتلقين؟
- وما صلته بالسياقات الثقافية، والاجتماعية، والتاريخية التي ساهمت في تشكيله؟
- وما صلته بالموروث العقائدي، والأسطوري، والإثني وغير ذلك من الموروثات؟
- وما علاقة العمل الإبداعي بالفلسفات المعاصرة له والسابقة عليه؟
- وما هي إمكانات الخطاب المستترة في عباراته وإشاراته؟ وما علاقتها بما تحيل عليه من سياقات؟
- وما غايته؟ وما معانيه؟ وهل هو جيد أم رديء؟ وما مبررات ذلك؟

وحتى يمارس الناقد دوره الإيجابي، فهو محتاج إلى جملة خصائص تنقل حكمه من الذوق والانطباع إلى المنهجية العلمية، وتمثل تلك الخصائص في: «الذكاء والمعرفة، والمهارة، والحساسية، والقدرة على الكتابة؛ يحتاج الذكاء ليكيفه بما يلائم العمل الذي يعالج، والمعرفة من أدبية وغير أدبية ليكون على وعي بما يتطلبه عمله، والمهارة لثلا تتدرج به طريقته أو تنساق به نحو وحدة آلية جوفاء، والحساسية ليظل دائما متنبها للقيم الخاصة في العمل الذي ينتقده؛ من حيث أنه يمثل تجربة جمالية فذة، والمقدرة الأدبية ليحسن التعبير عما يريد أن يقوله»¹²، وذلك ما يعطي الأحكام النقدية قيمة علمية، وينقلها من الذوق والانطباع الذي كان سائدا قبل النقد السياقي إلى العلمية والمنهجية التي تأسس عليها النقد السياقي.

رابعا: الأسس الفلسفية للنقد السياقي

كل رؤية في الوجود إلا وتستند إلى خلفية فلسفية، تحدد مسارات التفكير، وتضبط مجالات الرؤية وآفاقها، ومثلما تتعلق تلك الرؤية بالحياة وما يعتريها من تغيرات فإنها ترتبط

بالفن والإبداع وما يتولد عنه من مواقف نقدية، إذ الفلسفة ثابوية في عمق كل تفكير إنساني، ولذلك فكل بناء معرفي يجب أن يستند إلى خلفية فلسفية، تحدد منطلقاته، وترسم أهدافه وغاياته، ومن تلك المعارف الإنسانية التي تستند في مقولاتها ومنظورها النقدي على جملة من الفلسفات تبرز المناهج النقدية التي سايرت الظاهرة الإبداعية وكانت معها في سجال دائم، ويمكن أن نؤسس لعلاقة المناهج النقدية بالأسس الفلسفية بهذه المقولة لـ "لوسيان غولدمان".

يقول "لوسيان غولدمان": «إذا كانت الفلسفة أكثر من مجرد تعبير تصوري عن مختلف رؤيات العالم، وإذا كانت خارج خاصيتها الأيديولوجية، تحمل أيضا بعض الحقائق الجوهرية المتعلقة بعلاقات الإنسان مع الناس الآخرين، وعلاقة الناس مع الكون، فإن هذه الحقائق يجب أن توجد بالضبط في قاعدة العلوم الإنسانية وبالخصوص في مناهجها»¹³، وعليه تبرز العلاقة بين المناهج النقدية وخلفيتها الفلسفية، وذلك ما سنحاول الكشف عنه فيما يتعلق بالمناهج السياقية.

إن أهم الخلفيات الفلسفية التي يستند إليها النقد السياقي تتمثل في:

1/ فلسفة العلوم التجريبية

وهي الفلسفة التي تتخذ من الواقع الخارجي أساسا لبناء الأحكام، وتعرّف الحقيقة، مستندة إلى التجربة العلمية في وضع مبادئها وإقامة تصوراتها، وقد وضع مبادئ التجريبية كل من "دافيد هيوم" و "جون لوك" و "هوبز" و "ليسنيج"، و«اعتمدت على الحواس في إيصال المعرفة، وبنيت قضاياها على التجربة، فالحواس منافذ المعرفة وبها نرى الأشياء، ونسمعها، ونشمها، ونذوقها، ونلمسها، فتنتبج صور المحسوسات في الذهن، وتتولد منها الأفكار»¹⁴، ذلك أن التجربة تستند إلى ما هو ملاحظ ومشاهد، وقابل للقياس، وهو المسعى الذي تجسد في منظور النقد السياقي.

عمل رواد النقد السياقي على تحويل الشروط التجريبية المتعلقة بعلوم المادة من فيزياء وكيمياء، ومن علم الأحياء إلى ميدان النقد الأدبي، وذلك باستثمار كل ما يمكن أن يفك

لغز الأدب، وقابل لأن يكون عينة تجريبية، ومنه «كان السبب في ازدهار المناهج السياقية في ميدان النقد الأدبي، رغبة كثير من مفكري القرن التاسع عشر ونقاده في أن يجعلوا النقد علميا بمعنى الكلمة، وذلك لسببين: الأول أنهم كانوا معجبين بدقة العلوم الطبيعية ويقينها، وكانت النظرية المسماة بالوضعية تشيد بالعلم بصفته أعظم إنجازات العقل الإنساني، وأكثرها اتساقا، والثاني أنهم كانوا رافضين للأحكام المغرقة في الذاتية والانطباعية»¹⁵، وعليه فالنقد السياقي يفتح سجل حياة المؤلف، وظروف بيئته، وما فيها من تغيرات سياسية، وثقافية، واجتماعية ليقيم أحكامه النقدية، إذ يصبح ذلك السجل بمثابة عينة تجريبية قابلة للملاحظة، والقياس، وتسمح بإصدار الأحكام العلمية حولها، شأن التجربة العلمية مع ما بينهما من فروق تقرب الحكم النقدي من العلمية وتبعده عن الذاتية، لأن التجربة الإبداعية إنسانية بطبيعتها، ولن تسلم قيادها للشروط الصارمة للتجربة العلمية مهما حاول النقاد ذلك.

2/ الفلسفة الوضعية

إن استناد المناهج السياقية إلى أصول المنهج التجريبي من وصف وملاحظة واستنتاج، ووضع قوانين رياضية تضبط الشروط التجريبية، وتعبّر عن النتائج المتحققة، يؤكد الصلة الوثيقة بين هذه المناهج والوضعية الفلسفية.

جاءت الوضعية معززة لما قامت عليه التجريبية، واستبعدت كل تفكير لا يستمد عناصره الأولى من الحس والتجربة، ولذلك فالأفكار في الوضعية لا تظل شتاتا مبعثرة في الذهن، بل ترتبط بقانون التداعي، الذي يعد معادلا في أهميته لقانون "الجاذبية"¹⁶.

تطور الفكر الإنساني من منظور "أوغست كونت" فيلسوف الوضعية من الطور اللاهوتي (حيث يرجع تغيير الظواهر إلى قوى خارقة وكائنات فوق الطبيعة) إلى الطور الميتافيزيقي (حيث استبدلت القوى الخارقة إلى قوى مجردة تقدر على صنع كل الظواهر)، ثم الطور الوضعي، حيث انصرف التفكير من المطلق إلى الانشغال بدراسة الظواهر،

والبحث عن القوانين التي تحكم تلك الظواهر، وتكون الملاحظة والاستدلال هما سبيل معرفة تلك القوانين¹⁷.

ولذلك يجد الدارسون أن الفلسفة التي أقامها "أوغست كونت" «تلح على أن المعرفة المثمرة التي تضيف إلى مسار الفكر الإنساني، هي معرفة الحقائق وحدها، وأن العلوم التجريبية هي التي تزودنا بالمعارف اليقينية، وأن الفكر الإنساني لا يستطيع أن يحمي نفسه من الزيف في فلسفة العلوم إلا إذا اتخذ التجربة منهجا له، ومن ثم يتخلى عن النزعات الذاتية التي تحتكم إلى منطق الذات وأن الحقائق في ذاتها لا يمكن إدراكها، لأن الفكر لا يستطيع إدراك ذلك وإنما لا يدرك منها سوى العلاقات، ثم القوانين، وذلك منهج العلوم التجريبية»¹⁸.

أثرت الوضعية في الإبداع الأدبي ونتج عن ذلك المذهب الطبيعي مع "إميل زولا" ومن نحا نحوه في مجال الرواية والمسرح، وقادت الشعر إلى "البرناسية" التي مهدت السبيل أمام الشعر الرمزي والشعر التصويري، وبالمقابل «أثرت في النقد وقادته إلى التاريخية أو الواقعية النقدية»¹⁹، والتي تجعل العمل الأدبي واقعة يمكن تفسيرها من خلال ما يرتبط بها من بيئة، وجنس، وعصر.

وذلك ما جعل النقد السياقي يركز على ما ينطوي عليه النص من قيم جذورها ممتدة في الواقع الثقافي، والاجتماعي، والنفسي، حتى يتسنى له الإحاطة بالتجربة الإبداعية، لأنها ليست فعلا معزولا عن السياقات المحيطة بها، ومنه توصل النقاد السياقيون إلى «تقطيع النص إلى شكل ومحتوى، ويصرفون النظر عن الشكل ويقلبون في المحتوى، بحثا هناك عن مواد اجتماعية، وتاريخية، ولغوية، ودينية، وسياسية، وأيديولوجية، ومأثورات شعبية»²⁰، إذ الأدب من منظور الفلسفة الوضعية «ليس شيئا مستقلا، وإنما نتيجة أسباب غير أدبية»²¹، ولدراسته وإقامة الأحكام النقدية حوله يجب ربطه بعلم الاجتماع، وعلم وصف الأجناس البشرية، وعلم النفس والفيزياء، وحتى الميتافيزيقا، ولذلك يأتي

الأدب في الفلسفة الوضعية محدّدًا دائمًا من الخارج²²، وهو المرتكز النقدي الذي يجب أن ينطلق منه الدارسون للأدب من منظور سياقي.

3/ الفلسفات الاجتماعية والنفسية

من الفلسفات الحديثة التي كان لها الدور الأساس في بلورة المفاهيم التي تأسس عليها النقد السياقي تبرز الفلسفة الاجتماعية، وفلسفة التحليل النفسي، فمن التحليل النفسي استعار النقد السياقي الفروض الأساسية عن عمل اللاشعور، وكيف يعبر عن رغباته الكامنة بالتداعي، وعن عمل الأحلام استعار فكرة النماذج العليا، أو محتوى اللاشعور الجمعي، ومن علم النفس الجماعي عند الجشطالتيين أخذ فكرة الكليات، ومن علماء النفس التجريبيين استمد المقدمات التجريبية عن السلوك، ومن علم النفس الإكلينيكي استقى المعلومات المتعلقة بالتعبيرات المرضية للعقل الإنساني، ومن علم النفس الاجتماعي تعرف على طرق الكشف عن سلوك الإنسان في الجماعات والمجتمعات الكبرى، كما استفاد مما تقدمه العلوم النفسية والعصبية المتصلة بعلم الغدد الصم²³.

واستعار النقد الأدبي الحديث في صورته السياقية من الفلسفات الاجتماعية عند "دوركايم" و "أوغست كونت" نظريات ومقدمات عن طبيعة المجتمع، والتغير الاجتماعي، والصراع الاجتماعي، وصلة هذه بالأدب والظواهر الثقافية الأخرى²⁴.

ومن الفلسفة الماركسية استقى العلاقة الجدلية بين البنيتين الفوقية والتحتية، وأن الأدب في حقيقته انعكاس ولا يمكن فهم إحدى البنيتين في غياب الأخرى ولذلك «أصبحت الماركسية منذ نهاية القرن التاسع عشر تمثل الأساس الصلب للتصور التاريخي للأدب والفن»²⁵، من منظور شيوعي على أقل تقدير.

ومن الفلسفة الوجودية استمد فكرة الالتزام التي ترى أن الأدب التزام بقضايا المجتمع، وأن المبدع قائد فكري في مجتمعه، وبالتالي فهو ملزم بقضايا الصراع الداخلي في مجتمعه، أو الصراعات الخارجية التي تواجهه، وعليه «اعتبرت الوجودية أن المشتغل بالفكر الأدبي إبداعا ونقدا، لا يستطيع بحال أن يتخذ موقفا سلبيا منها (أي من تلك الصراعات)، ولا أن

يهرب من أداء وظيفته، وتحمل مسؤوليته تجاهها»²⁶، وذلك ما يؤهل إبداعه للتعبير عن تلك الصراعات، وما يمنح الناقد فرصة الإمساك بما من خلال إحاطته بالسياقات المولدة للإبداع وهو يحاكم النص، لأن علاقة الإبداع بالنقد في الفلسفة الوجودية محكومة بشائبة الحرية والمسؤولية، وذلك أساس الحكم على الأعمال الأدبية، إذ «تتحدد أقدار الناس وقيمهم طبقا لمدى قدرتهم على صناعة مشروعاتهم في الحياة، وطبقا لنوعية المواقف التي يتخذونها أثناء صياغتهم لهذه المشروعات»²⁷، ومنه يكون الناقد الوجودي مرتبطا بقيم الحياة، ويكون نصه سجلا لتلك المواقف.

ومن المذاهب الأنثروبولوجية استمد النقد السياقي مقدمات عن المجتمعات البدائية والسلوك الاجتماعي، ولذلك كان الفولكلور ذا مدد خصص للنقد السياقي²⁸. كما استفاد النقد السياقي من الرؤية التاريخية والدراسات الفيلولوجية للغة²⁹، إذ اغتُبرت تلك الدراسات مدخلا مناسباً لتحقيق النصوص، ومعرفة صلتها بالعصر الذي تنتمي إليه وبالكاتب الذي تنسب إليه.

إن البحث في الخلفيات الفلسفية للنقد السياقي، وما أمدت به هذا النقد من مفاهيم جديدة وجهت رؤيته، وشكلت توجهه، تعتمد على «فروض أساسية في الفكر الإنساني الحديث مميزة له، ويعود الفضل في هذه الفروض في المقام الأول إلى أربعة علماء من مفكري القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهم: "داروين" و"ماركس"، و"فريزر"، و"فرويد"³⁰، واللافت للنظر أن قيمة الآراء التي وضعها هؤلاء تكمن في أنها جديدة من جهة في الفترة التي ظهرت فيها، وأثرت في شتى التوجهات الفكرية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، ومن جهة أخرى أنها تعد خلفية ومفتاحا لما وراءها من علوم ومعارف:

« فمن "داروين" جاءت الفكرة بأن الإنسان جزء من النظام الطبيعي، وأن الحضارة تطورية، وأما "ماركس" فهو الذي ذهب إلى أن الأدب هو الذي يعكس، ولو بطريقة معقدة وملتبسة أحيانا العلاقات الاجتماعية

والإنتاجية لهذا العصر أو ذاك، وأما "سيغموند فرويد" فيرى أن الأدب تعبير مُقَنَّع، وأنه تحقيق لرغبات مكبوتة- قياسا على الأحلام- وأن هذه المَقَنَّعات تعمل حسب مبادئ معروفة، وتحت هذا كله هناك فكرته عن أن هناك مستويات ومدارج عقلية تقع وراء الوعي، وأن بين الرقيب والرغبة في التعبير صراعا مستمرا، وأما "فريزر" فهو صاحب الأفكار عن السحر البدائي، والأسطورة، والشعيرة البدائية، وأن هذه كلها تكمن في أساس أعلى النماذج والمواد الأدبية، وقد يضاف إلى هذه الفروض والأفكار نظرية "ديوي" في الاستمرار، وأن قراءة الأدب وكتابه ليستا إلا صورا لفاعلية إنسانية يمكن أن تقاس بأي فاعلية أخرى، وأنها خاضعة للقوانين نفسها، ويمكن دراستها على المناهج الموضوعية نفسها، كما تضاف إليه فكرة السلوكيين بأن الأدب ليس إلا رجلا يكتب ورجلا يقرأ، ولا شيء غير ذلك، ثم فكرة العقلين بأن الأدب قابل للتحليل»³¹.

وعليه يمكن القول بأن الفلسفات المتعلقة بالعلوم الاجتماعية، وبفلسفة التحليل النفسي كان لها الحضور القوي في إرساء الدعائم المفهومية للنقد السياقي لأنه نقد يعمل على ربط الأدب بكل ما يحيط به من ظواهر اجتماعية، وحالات نفسية، وامتداد تاريخي. خاتمة البحث ونتائجه

يمكن أن نتوصل في نهاية هذه الإطالة السريعة على النقد السياقي إلى جملة من النتائج يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

1/النقد السياقي وليد بيئة فلسفية، واجتماعية، وسياق حضاري للتطور التاريخي للمجتمع الغربي خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر على وجه الخصوص، ولذلك فهو محمل بالتطورات الحاصلة في هذا المجتمع والمتعلقة ببنيته الثقافية، والاجتماعية، والفلسفية.

2/ أصبحت التجربة العلمية التي تقع خارج الذات المدركة مصدرا للحقيقة، والفلسفة الوضعية مستندا للمعرفة، والفلسفة الاجتماعية، والنفسية مفتاحا لفهم تفاعل الإنسان مع عناصر الوجود، ولذلك عُدد النص عينة تجريبية يمكن أن تخضع للملاحظة، والتفسير والاستنتاج على ما بين التجربة في العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية من فوارق، ولكن ذلك يجعل النقد يتعد عن الذاتية ويقترّب من الموضوعية، خصوصا في دراسة الوثائق، وتحقيق النصوص، وغيرها من المواضيع.

3/ تعمل المناهج السياقية؛ التاريخي، والاجتماعي، والنفسي على ممارسة العملية النقدية باستثمار العناصر الخارجية في عمليات القراءة، والتحليل، وإصدار الأحكام، وذلك باستخدام التقنيات غير الأدبية، وضروب المعرفة غير الأدبية بتنظيم محكم ووعي منهجي.

هوامش:

¹ - محي الدين صبحي: النقد الأدبي بين الأسطورة والعلم، دراسات مترجمة، (مقدمة المترجم)، الدار العربية للكتاب، الجماهيرية العربية الليبية الاشتراكية العظمى، 1988، ص 05.

² - علي حمودين: الخلفية الفلسفية للمناهج النقدية الغربية، الأثر مجلة الآداب واللغات، العدد السابع، ماي 2008، جامعة قاصدي مرياح، ورقلة، الجزائر، ص 183.

³ - ياسين السيد: التحليل الاجتماعي للأدب، مركز الدراسات السياسية والاجتماعية، القاهرة، مصر، دط، 1991، ص 22، 23.

⁴ - مرشد الزبيدي: مفهوم البناء الفني للقصيدة في النقد العربي الحديث، مجلة الأقلام، عدد 08، 1989، منشورات وزارة الثقافة، دار الشؤون الثقافية العامة، جمهورية العراق، ص 108، 109.

⁵ - بسام قطوس: دليل النظرية النقدية المعاصرة، مكتبة دار العروبة، الكويت، ط 1، 2004، ص 21، 22.

⁶ - خصص التعريف النص الشعري لأن الدراسة التي تمثل مصدرا للتعريف مخصصة للخطاب الشعري، وإلا فإن المفهوم يتعلق بالنص مهما كانت طبيعته.

⁷ - محمد بلوحي: آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقارنة الشعر الجاهلي، بحث في تجليات القراءات السياقية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سورية، 2004، ص 09.

- ⁸ - البحث في الآليات الإجرائية للمناهج السياقية سيكون مشروع دراسة مستقبلية بحول الله.
- ⁹ - ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، الجزء الأول، ترجمة إحسان عباس ومحمد يوسف نجم، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، مصر، دط، دت، ص 09.
- 10 - ينظر، المرجع نفسه، ص 9، 10.
- ¹¹ - عبد الله عنبر: المناهج النقدية والنظريات النصية، دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 37، العدد 01، 2010، عمادة البحث العلمي، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، ص 97.
- ¹² - ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، الجزء الأول، ترجمة إحسان عباس و محمد يوسف نجم، ص 20.
- ¹³ - لوسيان غولدمان: العلوم الإنسانية والفلسفة، ترجمة يوسف الأنطياكي، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1996، ص 45.
- ¹⁴ - نصرت عبد الرحمان: في النقد الحديث، دراسة في مذاهب نقدية حديثة وأصولها الفكرية، جهينة للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ط 1، 2007، ص 19.
- ¹⁵ - نبيل راغب: موسوعة النظريات الأدبية، الشركة المصرية العالمية للنشر لوينجمان، مصر، 2003، ص 340.
- ¹⁶ - ينظر، نصرت عبد الرحمان: في النقد الحديث، دراسة في مذاهب نقدية حديثة وأصولها الفكرية، ص 31.
- ¹⁷ - ينظر، المرجع نفسه، ص 31، 32.
- ¹⁸ - محمد بلوحي: آليات الخطاب النقدي العربي الحديث في مقاربة الشعر الجاهلي، بحث في تجليات القراءات السياقية، ص 16.
- ¹⁹ - نصرت عبد الرحمان: في النقد الحديث، دراسة في مذاهب نقدية حديثة وأصولها الفكرية، ص 39.
- ²⁰ - إنريك أندرسون أمبرت: مناهج النقد الأدبي، ترجمة الطاهر أحمد مكي، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 1991، ص 81.
- ²¹ - المرجع نفسه، ص 81.
- ²² - ينظر: المرجع نفسه، ص 81.
- ²³ - ينظر: المرجع نفسه ص 12.
- ²⁴ - ينظر: المرجع نفسه ص 13.

- ²⁵ - صلاح فضل: مناهج النقد المعاصر، ميريت للنشر والمعلومات، القاهرة، مصر، ط1، 2002،
29.
- ²⁶ - المرجع نفسه، ص33.
- ²⁷ - المرجع نفسه، ص 34.
- ²⁸ - ينظر، ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، الجزء الأول، ترجمة إحسان عباس ومحمد
يوسف نجم، ص14.
- ²⁹ - ينظر، المرجع نفسه، ص14.
- ³⁰ - ستانلي هايمن: النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، الجزء الأول، ترجمة إحسان عباس ومحمد يوسف نجم،
ص 15.
- ³¹ - ينظر: المرجع نفسه، ص15،16.